حمى

مصدرها[1] نقل المندوب السامى إلى تركيا ، ولا غرابة فى ذلك فالسياسة كغيرها من الآفات ، تثير الحمى حين تصل إلى بعض أطوارها الحادة التى تقوى اليأس وتضعف الرجاء ، أو تفرض اليأس فرضا وتمحو الرجاء محوا وكما أن من اليسير أن تلاحظ الحمى التى تثيرها الآفات المختلفة فى أجسام المرضى فتسجل ما يختلف عليها من الصعود والهبوط ، فمن اليسير أن تلاحظ أطوار الحمى التى تصيب رجال السياسة وتسجل ما ينالها من الارتفاع والانخفاض . وكما أن لارتفاع الحمى وانخفاضها تأثيرا فيما يصدر عن المرضى من الأقوال وما يأتون من الأعمال ، فللحمى السياسية آثارها فيما يقول رجال السياسة وما يعملون . وكما أن أمزجة المرضى وحظوظهم من القوة والضعف تمكنهم من مقاومة الحمى والامتناع عليها أو تخضعهم لسلطان الحمى وتضطرهم إلى الاستسلام لها . فأمزجة رجال السياسة تمكنهم أحيانا من أن يقاوموا الحمى السياسية فلا يظهر لها فى أقوالهم وأعمالهم أثر ما ، وتسلمهم أحيانا لسلطان هذه الحمى فلا يستطيعون مقاومتها ولا الامتناع عليها .

---

(١) ٤ - ٩ - ١٩٣٣

وقد عرفنا من رجال السياسة المصريين زعماء كثيرين ، اختلفت عليهم الأحداث ، واعترضتهم الخطوب وأطافت بهم الأزمات من كل مكان فثبتوا لها ، وصبروا عليها ، وظلت وجوههم مشرقة وثغورهم باسمة ، وأحاديثهم مستقيمة ، لا عوج فيها ولا التواء ولا خلط فيها ولا اضطراب .

وكان رئيس وزرائنا المستقيل من هؤلاء الناس قبل هذا العام ، ولعله كان من أشدهم إغراقا فى ذلك وتكلفا له وازدهاء به ، وكثيرا ما تحدث الجادون والمازحون عن تلك الابتسامة التى لم تكن تفارق وجهه المشرق مهما تختلف الظروف ، ولكن رئيس الوزراء تغير فى هذا العام . وأكبر الظن أن المرض من جهة واتصال العناء السياسى المرهق من جهة أخرى ، قد أضعفا حظه من المقاومة وجعلاه رجلا كغيره من أوساط الناس تؤثر فيه الحمى السياسية فتخرجه عن طوره وتدفعه إلى أقوال وأعمال لا تصدر عن الساسة المحنكين . وما كانت تصدر عنه قبل الآن ، فلولا أن حظه من المقاومة قد ضعف حتى أصبح كغيره من الناس لما صدمه نقل المندوب السامى ، لأن هذا النقل شيء عادى لا قيمة له ، ولا خطر . ولن يكون له تأثير ما فى السياسة الإنجليزية المصرية . وهبه عظيم الخطر ، بعيد الأثر فى هذه السياسة كما يقول المعارضون الذين لا علم لهم بالسياسة ولا فهم لهم لدقائقها ودخائلها ، فإن نوابغ الساسة وعظماء الرجال لا يحفلون أو لا يظهرون احتفالهم بالأشياء ذوات الخطر العظيم والأثر البعيد .

ولكن رئيس الوزراء لم يكد يبلغه نقل المندوب السامى حتى خف

له طربا أو جزعا ، فوثب من لوسرن إلى باريس[1] ، ثم لم يكتف بالانتقال إلى باريس ليكون قريبا من مفوضيتنا فيها ومن مفوضيتنا فى لندرة ، وليكون الاتصال يسيرا بينه وبين العاصمتين ، عاصمة مصر حيث تتعقد السياسة الداخلية ، وعاصمة إنجلترا حيث تتعقد السياسة الداخلية والخارجية معا ، بل عجل عودته إلى مصر واختزل إجازته واستشفاءه اختزالا . وكل شيء يدل على أن رئيس الوزراء لو استطاع أن يثب إلى مصر كما وثب إلى باريس لما تردد ولا اضطرب ، ولكن عبور البحر يحتاج إلى أن يصبر ، واضطر إلى أن يستعد ويفكر ، ولكن الحمى السياسية أخذت ترتفع شيئا فشيئا لأسباب قد نعلمها وقد نجهلها . وإذا رئيس الوزراء لا يكتفى بتعجيل عودته ، بل يقدم سكرتيره بين يديه بشيرا بهذه العودة ، وبما تحمله . أو نذيرا بهذه العودة وبما تحمله من الاستقالة أو بشيرا ونذيرا فى وقت واحد .

وكان رئيس الوزراء حريا أن يحتفظ بسكرتيره الخاص إلى أن يعود ، لأنه لم يصطحبه إلا وهو محتاج إليه ، فاستغناؤه عنه أكثر من أسبوعين تضحية خطيرة ما كان رئيس الوزراء ليقدم عليها لولا هذه الحمى السياسية التى تكلف الناس شططا فى كثير من الأحيان . ثم لم

---

(١) صرح صدق باشا ، وهو فى باريس بقوله :

كل ما أرجوه هو أن يتابع المندوب السامى الجديد سياسة السير برسى لورين ، وألا يحدث أى تبدل فى السياسة الإنجليزية ، لأن السياسة الحاضرة توافق مصر . لقد سمعت ثناء كثيرا على السير مايلز لمبسون ، ويظهر انه ديبلوماتى ماهر . ومصر فى حاجة إلى دبلوماتيين ، لا إلى رجال من منظمى الإدارة فى المستعمرات . (البلاغ فى ٢ - ٩ - ١٩٣٣)

يكتف رئيس الوزراء بهذا البشير النذير الذى قدمه بين يديه ، بل آراد أن يضيف إليه بشيرا فى الصباح وبشيرا فى المساء ، أو نذيرا فى الصباح ونذيرا فى المساء . فدعا إليه مكاتب الأهرام ، ثم دعاإليه مكاتب المقطم وحملهما جميعا هاتين الرسالتين إلى الذين يعنيهم أمر الوزارة فى مصر .

فقدم رئيس الوزراء إذن بين يديه طائفة من المبشرين والمنذرين وكان حريا بعد ذلك – وقد بلغت الرسالة وأدى الرسل ما طلب إليهم تأديته – أن يهدأ ويطمئن ، ويعود إلى طور الساسة الذين يحسنون الصبر للخطوب والأحداث ، ولكن رئيس الوزراء لم يهدأ ولم يطمئن ، ولم يعد إلى طور الساسة الصابرين ، وإنما أخذت الحمى ترتفع وأخذت أقوال رئيس الوزراء وأعماله يدفع بعضها بعضا فى شكل عنيف مخيف ، وإذا المفاوضة تتصل بينه وبين الإسكندرية ، وإذا هو يرسل نذيرا آخر أو بشيرا آخر مع صحفى إنجليزى ، وإذا هو يتهيأ لركوب القطار ليرسل بشيرا آخر أو نذيرا آخر مع مكاتب روتر ، وإذا وزيرنا المفوض فخرى باشا يشفق عليه من هذه الحدة فيسأل مكاتب روتر فى المحطة كالمطمئن لرئيس الوزراء : أترى على هذا الوجه ما يؤذن بأن صاحبه مريض ؟ ويمضى القطار برئيس الوزراء إلى مدينة البندقية ، وفى مدينة البندقية – للذين يعرفونها – ما يبعث الهدوء والاطمئنان . ويكفى أن ينظر الإنسان المضطرب إلى هذه الخلجان الهادئة المطمئنة التى تخترق المدينة لتهدأ نفسه ويطمئن قلبه ، ويكفى أن ينظر الإنسان إلى هذه الزوارق التى تخطر على هذه الخلجان فى هدوء ودعة لتزداد نفسه هدوءا وقلبه اطمئنانا . ويكفى

أن ينظر الإنسان إلى ما فى هذه المدينة من مظاهر الفن وآيات الجمال التى اشتركت الطبيعة والناس فى إقامتها لتنصرف نفسه عن السياسة وأعراضها وأمراضها ، وليصعد فى سماء حلوة هادئة من الخيال الذى يبعث فى النفوس حياة وراحة ، وأملا ولذة ونعيما

وكل هذا خليق أن يهدئ حمى الأجسام وحمى النفوس ولكن مدينة البندقية لم تظفر عند رئيس الوزراء بما تظفر به عند الفلاسفة والكتاب والشعراء ، وعند عامة الناس أيضا . فلم تهدئ من حدته ، ولم تخفف من ثورته ، بل ركب السفينة كما ركب القطار إن صح ما تذيعه الأخبار من أنه أبرق إلى كبير الأمناء يلتمس تحديد الموعد الذى يتشرف فيه بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك بعد وصوله إلى الإسكندرية . اعترف بأنى أرجو كل الرجاء ألا يكون هذا النبأ صحيحا . فهو إن صح غريب حقا . فالناس جميعا يعلمون حق العلم أن كبار المصريين إذا آبوا من سفر بعيد أو قريب التمسوا أن يتشرفوا بالمقابلة الملكية ليرفعوا إلى صاحب العرش ما يجب عليهم من التحية وما تفيض به قلوبهم من الإكبار والإجلال . ورؤساء الوزارات وزملاؤهم الوزراء أولى الناس بذلك وأسرعهم إليه . والناس جميعا يعلمون أن هذه المقابلات إنما تطلب بعد العودة ، لا قبلها . وبعد أن يقيد طلابها أسماءهم فى سجل القصر . وما نظن أن مثل هذه المواعيد تطلب على هذا النحو بالبرق قبل ركوب البحر ، أو من على ظهر السفينة إلا أن تكون هناك أحداث جسام ، أو دون الجسام تحتاج إلى أن يتعجل رئيس الوزراء التماس هذا الموعد قبل أن يصل إلى الإسكندرية ، ولا سيما وقد علم الناس أنه سيتشرف بالمقابلة ، علم

الناس ذلك من طبيعة الظروف التى نحن فيها . وعلم الناس ذلك أيضا من تصريح رئيس الوزراء الذى أعلنه إلى الصحفى الإنجليزى وإلى مكاتب روتر قبل أن يترك باريس . فأنت توافقنى من غير شك على أن هذا النبأ إن صح – وأنا أتمنى ألا يكون صحيحا – يدل على أن هذه الأزمة السياسية قد وجدت من رئيس الوزراء رجلا ضعيف الحظ من المقاومة والاحتمال ، فأخرجته عن طوره ، وتجاوزت به حدود التقاليد .

والأنباء تحدثنا بأن القصر لم يحدد هذا الموعد الذى طلبه رئيس الوزراء بالبرق بعد . فسيصل رئيس الوزراء سالما موفورا غدا إن شاء الله إلى الاسكندرية ، وسيذهب رئيس الوزراء إلى رأس التين فيقيد اسمه فى سجل القصر كغيره من رؤساء الوزارات وكبار المصريين .

وفى الوقت بعد ذلك سعة يتلقى فيها رئيس الوزراء تحديد الموعد الذى طلبه للتشرف بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك ، قد يتلقى تحديد هذا الموعد مساء الثلاثاء ، وقد يتلقاه يوم الأربعاء وقد يتلقاه بعد ذلك ، ولكن المعقول والمألوف والملائم لأوضاع القصر وتقاليد السياسة أن يتلقى تحديد هذا الموعد فى الإسكندرية ، لا فى البندقية ولا على ظهر السفينة .

وبعد فإن هذه التصرفات التى صدرت عن رئيس الوزراء منذ أيام ، وصح أكثرها فلم يبق عرضة للشك دليل واضح على أن الذين نصحوا لرئيس الوزراء بأن يعتزل الحكم ، ويريح نفسه من أعباء

السياسة حين ثقل عليه المرض لم يكونوا غاشين ولا مخطئين ، وإنما كانوا ناصحين حقا ، وموفقين إلى الصواب حقا .

وكل ما نتمناه أن تكون هذه الآخره التى ينتهى إليها حكم صدقى باشا عظة لغيره من الذين يتولون رياسة الوزارات تعلمهم أن النهوض بأعباء الحكم كما ينبغى ، وكما يليق يحتاج إلى صحة كاملة وقوة موفورة ونشاط لا يعرف الضعف ، ولا يخاف عليه الفتور .